هنري برجسون ومنبع الأخلاق

دراسة ، تحليل، نقد

الدكتور خادم حسين إلهي بخش *

برجسون ومبدأ الإلزام:

من الأمور المتفقة بين علماء الأخلاق الغربيين أنهم يتحدثون عن الإلزام قبل الحديث عن الأخلاق، أياً كان نوعها ، ويرون أن الإلزام سواءٌ كان آتياً من الخارج أو نبع من الشعور الداخلي للإنسان هو الذي يولد الأخلاق ، لذا نجد برجسون بدأ رائعته (منبعا الأخلاق والدين) بالإلزام .

الإلزام:

أودعت الغريزة في الإنسان أن يعيش في صورة تجمع ، وتبرز نواته البدائية في صورة الأسرة ، ثم الأمة ، وينبغي أن تصل صورتها النهائية حتى تعم الإنسانية جمعاء [1].

ويرى برجسون أن الطبيعة ميزت الإنسان بالعقل ، والعيش جماعة مع غيره ، واقتضى ذلك التزامات وواجبات على الفرد تجاه المجموع ، تسمى بالأخلاق الاجتماعية ، وعليه الامتثال لها ، ويصف مثل هذه الأخلاق الاجتماعية فيقول : (توجيه إرادات الأفراد في اتجاه واحد)[2].

ويحصر مهام مثل هذه الأخلاق الاجتماعية في ضغط المجتمع على أفراده للحفاظ على وحدتهم، والتحام بعضهم مع بعض، (أما أن نَصِفَ الأخلاق هو واجبات يفسر الإلزام فيها بضغط المجتمع على الفرد، فهذا ما يوافق عليه في غير مشقة كبيرة ، لأننا نُعَانِى (نرى) هذه الواجبات في الحياة الجارية، وقد صيِغت في أوامر واضحةٍ جلية ، فمن السهل أن ندركها في جزئها المرئي ، وإن نهبط بها حتى نبلغ جذورها ، فنكشف عن المطلب الاجتماعي الذي صدرت عنه) [3].

ويرى سبب وجود مثل هذه الأخلاق يكمن في الإبقاء على الفرد الإنساني ، وفي الإبقاء على المجموعة التي ينتمي إليها ، وتحقيق مصالحهما معاً ، ويرد قول من يرى أن الأخلاق تنحصر في تحقيق مصلحة الفرد فحسب ، وأنها نفعية فردية تنشد المصلحة الشخصية ، ويقدم حجته في النفي ، بأن الغريزة التي أودعتها الطبيعة في كل منا تختلط فيها المصلحة الفردية بالمصلحة الجماعية ، فلا يستطيع الكائن العاقل حيازة أحدهما دون الأخرى[4].

فالإلزام وُجد من أجل البقاء على الأفراد في صورة صون المجتمع ، والإبقاء على وحدته متماسكين (وكلما تمايز المجتمع نتيجة لتقسيم العمل كان يعهد إلى الجماعات الصغيرة التي تتكون في داخله بمهمة ترويض الفرد ، وجعله على وفاقٍ معها ، وبالتالي معه ، والأمر في هذه الأحوال كلها أمر مجموعةٍ من العادات وُجِدت تحقيقاً لمصلحة المجتمع فحسب) ([5]).

والإلزام ضرورة من ضرورات الحياة، لا يستطيع العاقل رفض مثل هذه الضرورة - وربما افترضها ضمنياً دون أن يعطيها الاستقلال - أو يربطها بمبدأ يستحيل تخطيه، [6] (ما دام المجتمع موجوداً فهو يحدث بالضرورة ضغطاً على أعضائه ، وهذا الضغط هو الإلزام)([7]) .

ويهدف الإلزام الأخلاقي إلى تحقيق فكرة الخير ، فكل خُلق ملزمٍ ينبع من هذا المنبع (فكل بواعث العمل تندرج تحت مثال الخير على سُلمٍ مدرج ، وكلما كان الباعث أقرب إليه كان أشرف ، وهكذا تكون جاذبية الخير مبدأ الإلزام) ([8]).

وينفي أن يكون الإلزام الأخلاقي مبنياً على العقل والأمور الفكرية، وإنما الإلزام يأتي من المجتمع، ويرسم العقل غايات نشاطنا مطابقا لمتطلبات المجتمع ، (من السهل أن نرى أنه ليس لأي غايةٍ أن تفرض نفسها فرضاً إلزاميا ، لمجرد أن العقل يقترحها) [9] فالعادات إلزام ، وما يسود المجتمع من التقاليد واجبٌ اجتماعي ، مهمته ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض[10].

---

*استاذ قسم الشريعة والدراسات الإسلامية،جامعة الطائف، السعودية

رغم حصر الإلزام الأخلاقي في المجتمع ، يطالب برجسون بعدم قبوله إلا بعد مناقشةٍ عقليةٍ حرة ، خالية من الضغط (وإذا حفرنا الآن تحت هذا الوَهْم الشائع الذي تشترك فيه كل النظريات الأخلاقية ، وجدنا الإلزام ضرورة لا تقبل إلا بعد مناقشة ، فهي بالتالي مصحوبة بعقل وحرية) (11).

ويلخص مبدأ الإلزام فيقول (وخلاصة القول : إن الإلزام الذي نلقاه في أعماق شعورنا ، والذي يربطنا ببقية أعضاء المجتمع ، كما يدل على ذلك اسمه ، هو رابطة شبيهة في نوعها بالرابطة التي تشد أعضاء قرية النمل أو خلية النحل بعضها إلى بعض) (12) فالعادة في الإنسان تساوي الغريزة في الحيوان ، فكلاهما يعملُ لصالح المجموع (13).

تلخيص مبدأ الإلزام:

يمكن تلخيص ما قاله برجسون في خمس نقاط :

الإنسان اجتماعيٌ بطبعه ، لذا يعيش في وحدات مجتمعة .

ضغط المجتمع في توجيه إرادات الأفراد ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، وينتج عنه مبدأ الإلزام .

تأتي الأخلاق لتحقيق مصالح الفرد ومصالح الجماعة ، لتمثيل فكرة الخير للجميع .

منبع الإلزام هو المجتمع ، لا العقل .

قبول الإلزام يقتضي وجود العقل والحرية .

المناقشة:

حين ننظر إلى النقطة الأولى نجدها فطرية ، لا يستطيع الإنسان تفاديها على الإطلاق ، لأن كل فرد من أفراد المجتمع البشري محتاجٌ إلى غيره ، فالغني محتاج إلى من يكنس له داره ، وإلى نجارٍ يصلح له أبوابه ونوافذه ، ..... ، والكناس والنجار ... محتاجان إلى مال الغني بعد أداء العمل لتلبية حوائجهم المادية ، كل ذلك موجودٌ لا يمكن إنكاره .

وجاء شرع الله الأخير لتحقيق هذا المبدأ- الإنسان اجتماعي بطبعه- ولإظهاره في صورة ملموسة مشاهدة تجد أوامره جاءت لتحقيقه كواقع ملموس في كل أمر يحتاج فيه الإنسان إلى التجمع، فما تشريع الصلاة بأنواعها المختلفة ، وتشريع الحج وفرض الصيام على الجميع ... إلا لإظهار التجمع والتوحيد بين البشر .

وإذا نظرت إلى أحكام السفرالذي يتوهم بعض الناس ويعده من الخصوصيات التي تستحق الانفراد، تجد الشرع يأمر بالتجمع ، فقد صح من قوله : صلى الله عليه وسلم (الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركبٌ) (14).

فما قاله برجسون قد جاء به الشرع قبل ولادته بمئات السنين ، فلا جديد فيما جاء به .

وعند النظر في النقطة الثانية نجد الرجل يربط الإلزام بالمجتمع ، ويحصره فيه ، وإنه ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، بينما الصحيح أن أوامر المجتمع رافدٌ من روافد الإلزام ، ولا يلزم أن يكون كل إلزاماته صحيحة ، بل تحتمل الصحة والفساد ، فإن كان المجتمع رافداً من روافد **الإلزام فإن من روافده أيضاً:**

الحب، فالمحِب يلتزم تجاه محبوبه بكل متطلباته ، وربما قاده هذا الإلتزام إلى ارتكاب بعض المحظورات الشرعية أوالاجتماعية .

الكره ويقود إلى الإلتزام السلبي ، ما لم يكن للملزم سلطة التنفيذ القهرية .

الإعجاب بالشيء يقود إلى الإلتزام ، بغَضِّ النظر عن المُعْجَبِ به ، ودون النظر إلى نتائج الامتثال المؤدية إلى الحسن أو القبح .

الحصول على المنفعة يقود إلى الإلزام ، فمتى أيقن الإنسان أن منفعته تتحقق من هذا الإلتزام امتثل له.

حب الشهرة والبروزيؤدي إلى الإلزام فكم من ملتزمٍ بأمرٍ لم يلتزم به إلا للبروز وإشادة الناس به ، فلولا ذلك لم يَنْقد للامتثال .

وأعظم هذه الروافد وأجمعها حكمة هو رافد الوحي الإلهي ، فالإلزام ممن خلق الإنسان

وعرف ما ينفعه وما يضره أحق بالإمتثال ، ممن تنحصر دائرته في المنظور المشاهَد القريب ، لذا يحصر وحي الله الأخير مبدأ الإلزام في أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويربط أثقل الإلزام القهري - إلزام الحاكم - بموافقتهما ، قال تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (59) ([15]) .

وجاء التأكيد على هذا المبدأ على لسان رسول البشرية محمدٍ صلى الله عليه وسلم (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) [(16)].

وعند النظر في النقطة الثالثة من أن الإمتثال للأخلاق الاجتماعية ينتج عنه مبدأ (الخير للجميع) وبذلك تتحقق مصالح الفرد ومصالح الجماعة .

لايختلف اثنان أن البشر جماعاتٍ وفرادى يبحثون عن النفع والخير ، لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو : من الذي يعرف أن هذا خيرٌ فيأتيه ، وهذا شرٌ فيمتنع عنه ، فهاهي المجتمعات الغربية تمتثل لأخلاق يظنون أنها تحقق الخير ، مثل السماح بتعاطي الزنا من البالغ الراشد دون إكراه ، وشرب المسكرات ، وإباحة المعاملات الربوية .....

كل ذلك من الأخلاق الاجتماعية ويتعاطونها لظنهم أنها تحقق الخير للجميع ، بينما العديد من المجتمعات البشرية - المسلمة واليهودية والهندوسية والنصرانية المتمسكة بأحكام الإنجيل ... - تنظر اليها بعين الحرمة والسخط ، رغم إتيان بعض أفرادها لمثل هذه المحرمات الاجتماعية .

فقضية تحديد الخير ظلت وستظل موضع نزاع بين الخاضع لله ، والخاضع لغير الله ، ومتى أيقن الإنسان أن أفضل الوسائل وأحكمها للتعرف على الخير تنحصر في اتباع أحكام الله ، وأحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لن يختلف في تحديد مفهوم الخير والشر ، فقبل البحث في تحقيق الخير يجب تحديد الجهة التي تعرف الخيرَ والشر، والمفيدَ والضار ، فيما يخص الحياة البشرية ، فعند ذلك يحقق الامتثال للأخلاق الاجتماعية مبدأ الخير للجميع .

وأما الامتثال للأخلاق الاجتماعية في صورتها الحالية فهي موضع نزاع في تحقيق الخير للجميع ، لأن المجتمعات البشرية تعيش بعاداتٍ ومبادئ ذات توجهات مختلفة، بل متعارضة، لذا لن يقود الامتثال لها إلى مبدأ الخير للجميع ، فالمجتمعات الشرقية مثلاً تمتنع عن أكل لحم الخنزير لقناعتها أنه ينزع الغيرة، بينما المجتمعات الغربية تقدم حسنات هذا اللحم إلى أفرادها حتى فضلته على سائر اللحوم، لذا قلما تخلو وجبتهم من مكونات هذا الحيوان .

وعند النظر في النقطة الرابعة من أن منبع الإلزام هو المجتمع لا العقل يبدو وجيهاً في بادئ الأمر، ولكنك سرعان ما تدرك أن حصر الإلزام في المجتمع استهانة بالعقل البشري ، كما أنه حصرٌ لما لا يقبل الحصر ، حين ينطلق من منبع بشري .

فالعقل مفتاح الإلزام ، فما لم يقتنع لا يمكن أن يأمر الجوارح بالامتثال ، لذلك لا تجد أحكام الشرائع الإلهية منافية لما يدعو إليه العقل ، ومن هنا تخضع الأمم للرسول الذي بعثه الله إليها ، لأنه يأتيهم بما تقتنع به عقولهم ، وقد يأتي الرسل بما تحتار فيه العقول ، ولا تأتي بما تنفيه ، وذلك هو المشاهد في المبعوثين من عند الله عزوجل .

أضف إلى ذلك أن المجتمع حين يأمر بأمرٍ تجده مبنياً على عقل أحد الأفراد ، اوعلى عقول مجموعةٍ من الأفراد ، فالعقل هو الحلقة التي يدور فيها الإلزام ، وإخراجه من هذه الحلقة كإخراج السمك من الماء ليموت ، فمتى أُخرِج الإلزام من العقل فَقَدَ إلزَاميَّته .

ويبدو أن مصدرية الإلزام غير العقلي كمصدرية تربية الحيتان في البر.

وعند النظر في النقطة الأخيرة من أن الإلزام يقتضي وجود العقل والحرية ، نجد الأمر يسير مع الواقع ومُبْتغى البشر، فوجود العقل وكون الإنسان حراً في الامتثال من أعظم شروط الإلزام .

إلا أن الإسلام يضيف إلى ذلك :

أن يكون الممتثل أهلاً لتحمل الإلزام ، وحصر الأهلية في البلوغ والعقل (رفع القلم عن ثلاث، عن النائم

حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق) ([17]) .
أن يصدر العمل من الممتثل بإرادته واختياره ، فإن لم يكن مريداً للفعل ولا مختاراً له لا تلزمه النتائج الكاملة فيما صدر عنه، (... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (5) ([18]).
أن يكون الملتزم قادراً على الأداء فلا إلزام مع العجز (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)[19].
فمتى توفر في الإنسان: العقل ، والحرية ، والبلوغ ، وانتفى عنه العجز ، وكان مريداً للفعل ، كان الإلزام صحيحاً عند العقلاء .
فبناءً على مبدأ الإلزام قسم برجسون الأخلاق إلى قسمين : أخلاق مفتوحة وأخلاق مغلقة، وهذا هو

تعريف الأخلاق:

كلمة الأخلاق مأخوذة من فعلٍ حروفه خلق - مثلثة العين - ، ولها معانٍ من أهمها : البلى والقِدَم ، والقياس، وتقدير الأمر، والإبداع ، والإملاس ، والإفتراء والجدير به ، وطُبع عليه ، والمعاشرة ، والتكلف ، والحظ والنصيب ، والمخلوق ... ([20]).
والأخلاق جمع خُلق، والخلق حالٌ للنفس تصدر عنها الأفعال من غير حاجة ألى فكرٍ وروية[21].
والخالق اسم من أسماء الله عزوجل ، وهو المبدع للشيء على غير مثالٍ سابق .
وعلم الأخلاق هو (علمٌ موضوعه أحكامٌ قِيَمِيَّة تتعلق بالأعمال التي توصف بالحُسْن أو القبح)[22]
ويعرف كتاب الثقافة الإسلامية - المقرر على طلاب وطالبات جامعة أم القرى وجامعة الطائف- الخُلق:(بأنه: صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة)[23].
فالخلق إذن عمل سلوكي ينبع من الفطرة يُوصف بالحُسن أو القُبح ، يقوم الإنسان بأدائه عند الحاجة، ويختلف عن الأعمال الغريزية بأن الأخيرة لا تُصف بالمدح أو الذم، بينما السلوك الخُلقي يُوصف بهما، فلأكل عند الجدوع غريزة ولكن الشره الزائد عن الحاجة العُضْوية خلقٌ مذموم ، والإقدام الذي لا يُوصف بالتهور خُلق محمود يسلكه الشجاع عند الحاجة .

تعريف الأخلاق عند برجسون:

لم يقدم برجسون تعريفاً دقيقاً للأخلاق، وإنما ذكر لها أوصافاً وملامح تقود إلى ما يميزها عن غيرها من المصطلحات الاجتماعية ، فوجود الخير في مجتمع منظمٍ رُتِبَتْ فيه الأفعال لصون الالتحام الاجتماعي , وقابليتها من أجل الرقي الإنساني شيءٌ من ملامحها ، فكل نشاطٍ (يكون أخلاقياً بقدر ما يكون مطابقاً لفكرة الخير) [24].

أقسام الأخلاق عند برجسون:

تنقسم الأخلاق الاجتماعية عند برجسون إلى قسمين :
أخلاقٌ إجتماعية مغلقة ، ويطلق عليها اسم (أخلاق ضغط) أو الأخلاق الكونية .
أخلاقٌ اجتماعية مفتوحة، ويطلق عليها اسم (أخلاق تَطلُّع) [25] أو الأخلاق الحَرَكِيَّة .

منبع الأخلاق المغلقة:

تنبع الأخلاق المغلقة من العلاقة القائمة بين الفرد ومجتمعه ، فالفرد الذي يقبل الخضوع للجماعة، فيتمثل لأوامرها تمام الامتثال ، تبرز لديه الأخلاق المغلقة ، وقد وجدت مثل هذه الأخلاق مع وجود الإنسان ، ومن هنا كان مجتمعه مجتمعا مغلقاً، [26] وإن الأديان البدائية تمثل هذا النوع من الأخلاق، لأن الأخلاق والدين متحدان في مثل هذه الأديان.
(فالأديان البدائية لا يمكن أن يقال عنها إنها لا أخلاقية ، أو إنها لا تعني بالأخلاق ، إلا إذا نظرنا إلى الدين على ما كان عليه في الماضي وأردنا أن نقارنه بالأخلاق ، كما صارت إليه في الحاضر ، إن العادات في القديم كانت هي الأخلاق كلها ، ولما كان الدين يحرم الخروج عنها كانت الأخلاق والدين شيئاً واحدا) [27].
فمثل هذه المجتمعات مهما كان اتساعها فإنها تضم عادةً عدداً معيناً من الأفراد، وتستبعد غيرهم، فيقوم كيانها على الالتزام بأوامر المجتمع، فتفرض نظاماً معيناً من العادات والتقاليد على أفرادها، يحقق

لها وحدتها ويصون كيانها ، فالإلزام في صميمه قائمٌ للمحافظة على التماسك بين أفراد الجماعة، وللعمل على صيانة وحدتهم ضد العدو الخارجي .

وتوجد مثل هذه الأخلاق المغلقة في صورة العادات والأفكار والمؤسسات ، لتوحيد صورة الحياة الاجتماعية ، (إن هناك أخلاقاً سكونية هي التي توجد فعلاً في لحظةٍ معينة، و(في) مجتمع معين، ثم تثبت في العادات والأفكار والمؤسسات، ويرجع طابعها الإلزامي إلى ضرورة الحياة، حياة اجتماعية، مما اقتضته الطبيعة)[28].

وتخرج نتيجة الأخلاق المغلقة، في صورة ظهور مجتمع مغلق يتماسك أفراده فيما بينهم ، غير حافلين بسائر البشر ، هَمُّهم القتال، مستعدين دوماً للهجوم أو الدفاع ، ولهذا المجتمع خلق الإنسان وهو المجتمع الإنساني الأول ([29]).

ويشجع برجسون بصورة غير مباشرة - باستعمال الكلمات مغلق مفتوح ، ساكن متحرك ، المحدود اللامحدود - أفراد المجتمع على التمرد بعصيان الأخلاق الاجتماعية ، التي يتعاطونها ليصلوا إلى الأخلاق المفتوحة ، (فالقانون يأخذ من الأمر صفة الصرامة ، والأمر يأخذ عن القانون صفة الضرورة التي لا تُدفع ، حتى ليبدو لنا الخروج على النظام الاجتماعي شيئاً غير طبيعي ، ونعده ضرباً من الشذوذ أو الاستثناء) [30].

ولتعميق هذا التمرد يجزم بأن الحياة الاجتماعية تقوم على الوَهْم، واعتقاد المرء أن غيره أفضل منه، لمعرفته نقائص نفسه واختباء نقائص غيره عنه ، والمرء بهذا الاعتقاد يكتشف الإنسانية التي في أعماق ذاته ، (ونحن مهما نقس في الحكم على الناس ، فإننا في أعماقنا نعتقد أنهم خير منا، وعلى هذا الوهم المُوفق يقوم جزءٌ كبيرٌ من الحياة الاجتماعية) [31].

تلخيص منبع الأخلاق المغلقة:

يمكن تلخيص منبع الأخلاق المغلقة في أربعة نقاط :

تنبع الأخلاق المغلقة من المجتمع ، وأن العادات هي الأخلاق، ويقوم المجتمع بغرسها لتوحيد صورة الحياة الاجتماعية .

الإلزام الأخلاقي قائم للمحافظة على صيانة المجتمع ضد العدو الخارجي .

أصحاب الأخلاق المغلقة هَمُّهم قتال من سواهم هجوماً أو دفاعاً .

غرس التمرد على الأخلاق المغلقة ، وذلك بإعطائها أوصافاً مُنَفرة.

المناقشة:

عند النظر في النقطة الأولى من أن المجتمع هو مصدر الأخلاق المغلقة ، لم يصل برجسون إلى الحقيقة الكاملة، لأنه درس الأخلاق عند المجتمعات التي لا تؤمن بالله ، فقاده ذلك إلى حصرها في المجتمع دون ما سواه .

والحق أن المجتمعات البشرية تجاه مصدرية الأخلاق قسمان :

قسمٌ مؤمنٌ بالله ، يعيد مصدريتها إلى الله عزوجل ، ويترك للقياس والاجتهاد البشري وتحقيق المصالح العامة مكاناً يغطي ما يتناسب مع أسس الشرع المنزل من عند الله عزوجل .

قسم غير مؤمنٍ بالله يبحث عن مصدريتها في الوسائل البشرية المتاحة ، لذا لا تجد لهؤلاء كلمة اتفاق في تحديد المصدر ، فإن كان برجسون يعيد مصدرية الأخلاق المغلقة إلى المجتمع ، فغيره من أصحاب النظريات الخُلقية يعيدها إلى غير هذا المصدر كفرويد وكارل ماركس وإميل دور كايم .

أما كون العاداتِ هي الأخلاق فأمرٌ لا يختلف فيه البشر ، إذ الممارسة المتكررة لخلقٍ ما يحوله إلى عادة ، يتعاطاها الإنسان دون شعور ، ويمكن عدها بأنها شبيهة بالغريزة ، ومن أبرز معالمها في هذه الحالة توحيد صورة الحياة الاجتماعية كتوحيد العادات والتقاليد والممارسات المتماثلة .

وعند النظر في النقطة الثانية من أن الإلزام قائمٌ للمحافظة على التحام المجتمع ضد العدو الخارجي نجدها لا تنبع إلا من قصير النظر ، لأن عيش البشر في تجَمُّع فطرة بشرية ، خلق الله الإنسان عليه ، لا يستطيع الاستغناء عنه ، فكل فردٍ محتاج إلى غيره مما يتقنه من أعمال الحياة .

أما قضية الالتحام ضد العدو الخارجي فلا أراها إلا وَهْماً من أوهام برجسون ، لأن التاريخ البشري يشهد بأن الدفاع عن المجتمع لم يتأت عن طريق الأفراد ، بل جاء دائماً في صورة الجيوش والمؤسسات القتالية ، ولنفترض انعدام العدو الخارجي ، وسيادة المحبة بين جميع المجتمعات البشرية ، فهل يتحلل الالتحام الاجتماعي ؟ .

وعند النظر في النقطة الثالثة من أن أصحاب الأخلاق المغلقة هَمُّهم القتال نجد الواقع يكذب برجسون، فها هي شعوب العالم الثالث تمتثل للأخلاق المغلقة فلما تجد بينها قتالاً وحروباً ، بل يأتي القتال في الأعم الأغلب من الشعوب و الدول المتقدمة التي تخلت عن مثل هذه الأخلاق كالأمريكيين والبريطانيين والإيطاليين .....

بل نجد قادة الأخلاق المغلقة وعلى رأسهم رسولنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ينهى متبعيه عن تمني لقاء العدو، فضلاً عن أن يكون هَمُّه وهَمُّ أصحابه القتال (.... أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية .....) ([32]) بل نجد القرآن الكريم ينهى عن قتل نفس واحدة ، فما بالك بخوض الحرب ، أو الحروب، أو هواية القتال قال تعالى : (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ(32))([33]).

وعند النظر في النقطة الرابعة نجد الرجل يحاول غرس التمرد على العادات والتقاليد ، وذلك بإعطائها أوصافاً تكره النفس الإنسانية الاتصاف بها .

لا شك أن ذلك جزء من مخططٍ مُوْرس ضد هدم التعاليم الكنسية في الغرب ، ونُقِلَ ذلك إلى المسلمين منذ عهد الاستعمار، عن طريق حكم القوي على الضعيف ، ليمارسه تجاه الإسلام وأخلاقياته الإنسانية .

ولنفترض أن التمرد قد وقع على الأخلاق المغلقة في أفراد المسلمين ، فهل ستختلف النتائج عما خرجت به في الغربيين ، فها هم قد أباحوا الممارسات الجنسية الشاذة لواطاً وسحاقاً ، وها هي النوادي الليلية تصدر صكوك الزواج بالمحرمات باسم الزواج العرفي والحريات العامة ، فلا مانع أن ينكح الرجل ابنته وأخته وأمه .....

أباحوا التعاملات الربوية ، فاستغلوا الفقراء لاستثراء الأغنياء عن طريق القروض الربوية ، .... فما الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية إلا جزءٌ يسيرٌ من نتائج هدم الأخلاق المغلقة ، وها هم قد أباحوا شرب المسكرات فانكب الفلاحون في المناطق الباردة في العالم على زراعة نَبْتةِ الخشخاش (الأفيون) لاكتساب الثراء على حساب هدم الأخلاق ، فهل من متعظٍ من الواقع والنتائج التاريخية ؟ ولاسيما ممن يدعو إلى هدم الأخلاق الاجتماعية الإسلامية في الشعوب المسلمة ؟ .

لأخلاق الدينية المغلقة:

لا يرتضى برجسون رأي من يرى أن الأخلاق الدينية المغلقة تُفْرَضُ بالفلسفة الميتافيزيقية (الغيب)، من أن الدين جاء بأخلاق جديدةٍ تتصل بالله أو بالكون ، أو بصلة أحدهما بالآخر ، كما لا يرتضى الرأي المعاكس لذلك : من أن الدين يهيئ النفوس لنظرةٍ أخلاقيةٍ جديدة ، لم يسبق إلى الناس تقديمها ، بل تنحصر في كونها جديدة ، لم يقدمها أحدٌ من البشر قبل ذلك في تلك الصورة ، فكلا الرأيين في نظره خطأ [34].

والصحيح في نظره أن الأخلاق الدينية تَنْبَني على الانفعال، فتغدو مذهبا أخلاقيا غير ملزم، (فليس في استطاعة أي تفكير نظري أن يخلق إلزاماً أو ما يشبه الإلزام ، ومهما تبلغ النظرية من جمالٍ ففي وسعي دوماً أن لا أقبلها ، وَهَبْنِي قبلتُها ، فلي أن أدعى الحرية في أن أتصرف كما أشاء ، أما إذا وجد جَوُّ الانفعال ، فاستروحت نسيمه ، فنفذ إليَّ فإنه يثيرني ، فأصنع ما يريد ، لا عن إكراهٍ أو ضرورة ، بل عن ميلٍ طبيعي لا أحب أن أقاومه) [35] وتلك هي الأخلاق الدينية.

ويتهم برجسون الدين بأنه يأمر بأخلاق يخجل منها العقل ، وتقود إلى الضلال والتيه، وإنك تراه ينفي المستحسن ، ويوجب الجرائم ، وكلما كان بدائياً كان مجاله التنفيذي في حياة الشعب أوسع، (إذا انظرنا إلى ما كانت عليه الأديان في السابق ، وإلى ما لا يزال عليه بعضها حتى الآن ، رأينا مشهداً يُخْجِلُ

العقل الإنساني ونسيجاً من الضلالات.

وعبثاً تقول التجربة هذا خطأ ، وعبثاً يقول التفكير هذا مستحيل ، فإن الإنسانية موغلة في تعلقها بأذيال الخطأ والمستحيل ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فقد رأينا الدين ينفي الأخلاق ويوجب الجرائم ، وكلما كان فجاً كان مجاله المادي في حياة الشعب أوسع)[36] .

ويجزم بأنه لا تضامن في الواقع بين الدين والأخلاق ، ولا ترابط بينهما ، وأن إله الدين لا يسوؤه الخروج على الأخلاق ، ولا ارتكاب الجريمة ، بل نجده يأمر بهما في التاريخ البشرى ، (ولنختم كلامنا بتنبيهين دفعاً لسوء التأويل ، عند ما نقول بأن من وظائف الدين ـ كما أرادته الطبيعة ـ أن يصون الحياة الاجتماعية ، فإننا لا نعني بذلك تضامنا بين الدين والأخلاق ، فالتاريخ يشهد بعكس هذا، ولئن كان ارتكاب الخطيئة الدينية يسوء الإله دوماً ، فالإله لم يَسُؤه الخروج على الأخلاق، بل ولا الإجرام دوماً ، حتى لقد اتفق له أن أمر بهما)[37].

تلخيص الأخلاق الدينية المغلقة:

يمكنني تلخيص الأخلاق الدينية المغلقة في أربعة نقاط :

الأخلاق الدينية المغلقة لا تفرض عن طريق الميتافيزيقيا (الغيب) ، ولا تتقبلها النفوس لِجدَّتِها وعدم تقديم أحدٍ مِثْلها .

الأخلاق الدينية المغلقة تبنى على الانفعال ، والميل الطبيعي .

الدين يأمر بأخلاق يخجل منها العقل ، كنفي المستحسن وإيجاب الجرائم .

إله الأخلاق غير إله الدين ، لأن الأخير لا يستاء من الجريمة والخروج على الأخلاق .

المناقشة:

عند النظر في النقطة الأولى: من أن الأخلاق الدينية لا تفرض عن طريق الغيب ، نجد الأمر مرفوضاً من الوجهة التاريخية عند كل البشر ، فحين ننظر إلى الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل والقرآن الكريم وهي تتحدث عن هذا الجانب ، نجدها تخبرنا بأعظم قضايا الأخلاق الدينية ، وهي أن لهذا الكون موجداً ، وهذا الموجد هو الله ، رغم اختلافها في تصور الله .

فالأخلاق الغيبية هي الأساس للديانات الإلهية المنزلة من عند الله عزوجل ، فمن أعظم هذه الأخلاق أخلاق الإيمان بوجود الملائكة ، وأخلاق الإيمان بإرسال الرسل ، وأخلاق الإيمان بإنزال الكتب ، وأخلاق الإيمان بوجود يوم القيامة للحساب والجزاء .

أما قضية كون النفوس لم تقبلها لجدَّتها فأمرٌ مسلم ، فما كل جديدٍ يستحق القبول لدى الناس ، فنزول الموت أمرٌ جديد لا ترتضي الناس وجوده ، ورمي الناس بالقنابل المحرقة أمرٌ جديد لا ترتضي الناس صنعه فضلاً عن التعامل به .

بل ارتضت الناس الأخلاق الدينية لوجودها في جيْنَاتها المنقولة عبر آدم عليه السلام ، وقد أخبرنا علم الوراثة أنها لا تنعدم ، وقد تتنحى في جيلٍ أو أكثر ، وربما جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة في قوله سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) [38].

ومن هنا شملت الأخلاق الدينية كل سلوكيات محمدٍ صلى الله عليه وسلم في حياته ، فقد أجابت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق وأعرف الناس به ، حين سئلت عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (كان خلقه القرآن ...) ([39]) .

وعند النظر إلى النقطة الثانية : من أن الأخلاق تُبْنَى على الانفعال والميل النفسي ، نجد الرجل صادقاً في إبراز جزءٍ من الحقيقة ، نعم تبنى الأخلاق الدينية على الحب والانفعال ، و قمة ذلك حب الله وحب رسوله بامتثال الأمر وترك النهي قال تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)(32) ([40]).

كما تبنى على التقليد ، كتقليد الأولاد لآبائهم وأقربائهم قال تعالى: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)(23) ([41]).

كما تبنى على ضغط القوي على الضعيف حين يطغى الأول ويرى في نفسه عنصر التفوق على من يضغط عليه ، كضغط صاحب العمل على العامل والأمير على الرعية ورئيس الوزراء على الوزراء والملك على من دونه قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (26)[42].

هذه بعض الروافد التي تقود إلى الأخلاق الدينية ، فما من خلق ديني إلا وراءه حب ، أو تقليدٌ ، أو ضغطٌ ....

وعند النظر في النقطة الثالثة : من أن الدين يأمر بأخلاقٍ يخجل منها العقل ، كنفي المستحسن او إيجاب الإجرام ، كل ذلك حقٌ وصدقٌ في أخلاقيات الدين الباطل ، الذي تخترعه العقول البشرية ، كدين فرعون الذي كان يقدم ضحية سنوية لنهر النيل ، في صورة أجمل فتاة بعد تزيينها كأنها في ليلة زفافها ثم رميها فيه ، جلباً لرضى النيل حتى لا يجف .....

ومثل عبادة الأصنام التي ينحتها البشر، رغم علمهم بناحتيها، ويقينهم أنها لا تضر ولا تنفع، ومع ذلك يقدسونها ويعبدونها طلباً لرضاها وتجنباً لسخطها ، قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا به عَالِمِينَ (51)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) ([43])-

وعند النظر في النقطة الرابعة : من أن إله الدين لا يسوءه ارتكاب الجرم ولا الخروج على الأخلاق، وعليه بنى برجسون أن لكل واحدٍ من الدين والأخلاق إلهاً مستقلاً .

لا شك أن ذلك افتراءٌ مكشوف على الدين الحق ، فحين ننظر إلى القرآن الكريم نجد الجريمة مبغوضة عند الله عزوجل ، ويمنع عن ارتكابها ، فالقتل جريمة أخبر القرآن الكريم أن الله يغضب على من يرتكبها (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)) ([44])-

أما الخروج عن الأخلاق وترك ما يحب الناس إتيانه ، فشرع الله الأخير بلغ في ذلك قمته ومنتهاه، انظر إليه وهو يشرع المعاملة المثلية تجاه من اعتدى ، ويحبب إلى من أعْتُدِي عليه العفوَ والصفحَ قال تعالى: (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40)[45]-

إذن إله الدين الحق تسوءه الجريمة ولا يريد الخروج على الأخلاق ، وإن مصدر الدين والأخلاق واحدٌ عند البشر منذ وجودهم حتى اليوم ، ولم يشذ عن هذا الاتفاق إلا برجسون ، فالبشرية بمؤمنها وكافرها لا تعرف لهما إلا مصدراً واحداً ، أما هذا التفريق : للدين إلهٌ وللأخلاق إلهٌ آخر فلا عهد للبشرية به .

تعريف الأخلاق المفتوحة:

سبق أن ذكرت أن برجسون قلما يذكر تعريفاً محدداً للشيء الذي يتحدث عنه ، بل يكتفي بذكر الأوصاف التي تميزه عن غيره ، فمن ذلك ما يتصل بالأخلاق المفتوحة : فمن أوصافها عند برجسون أنها ليست وليد ضغطٍ اجتماعي ، وإنما تصدر عن نُزوع سامٍ تتمثل فيه جاذبية القِيم ، وعدم استجابة الفرد لنداء مجتمعه ، بل يستجيب لنداء الإنسانية ، الذي يسعى نحو العمل لما فيه مصلحة البشرية جمعاء، ويجعل نموذجه الأعلى في المحبة والكمال الأخلاقي [46]-

تقوم مثل هذه الأخلاق المفتوحة على أكتاف عظماء البشرية ، من العباقرة والمصلحين ، خلقتهم الطبيعة بوثبةٍ حيوية ، لا سبيل إلى التنبؤ بنتيجتها، وهم أقرب الناس إلى مصدر الحياة وينبوع الجد، وتنتشر عن طريق القدرة الصالحة والنموذج الحي ، وكثيراً ما تساهم مثل هذه الأخلاق المفتوحة في تغيير طبيعة المجتمعات المغلقة،[47] (لقد تجسدت هذه الأخلاق في شخصيات ممتازة، كانت تنبجس في كل الأزمان.

فقد عرفتها الإنسانية قبل أن تعرف القديسين، من أهل المسيحية وحكماء اليونان وأنبياء بني إسرائيل وأبطال البوذية ، وغيرهم كثيرين، وبهم كان الناس يقتدون حتى ينالوا هذا التخلق الكامل ، الذي يحسن أن يسمى بالتخلق المطلق.... فبينما نرى أن الأخلاق الأولى تزداد صفاءً ونقاءً على قدر ما نستطيع ردها إلى قوانين لا شخصية، نجد أن الأخلاق الثانية لا تكون هي هي ذاتها ما لم تتجسد في شخصية ممتازة ، تُتخَذ قدوة تُحتَذى، فعمومية الأولى تأتي من قبول الناس عامة قانوناً من القوانين، بينما عمومية الثانية تأتي من محاكاة الناس لمثال يحتذونه) [48].

فالأخلاق المفتوحة تُبرز تجمعاً ربط الناس جميعا بعضهم ببعض ، دون النظر إلى المعارض أومن يضع العوائق في طريق هذا الالتحام ، وتتغير مثل هذه الأخلاق المفتوحة في ضوء تحقيق المصلحة لكل البشر ، دون الالتفات إلى فئة معينة [49].

تلخيص الأخلاق المفتوحة:

يمكنني تلخيص الأخلاق المفتوحة في ثلاث نقاط :

إنها نزوعٌ فرديٌ تنبع من القيم .

يرفض صاحبها نداء مجتمعه ، ويستجيب لنداء الإنسانية لتحقيق مصلحة البشر أجمعين .

ينحصر عمل مثل هذه الأخلاق في غرس المحبة بين البشر أجمعين ، وتقوم على أكتاف العظماء من العباقرة والمصلحين .

المناقشة:

عند النظر في النقطة الأولى نجد برجسون قد ذكر الواقع المشهود، الذي عاينه في تاريخ العظماء، ففيهم نزوعٌ إلى القيم ، لكن السؤال الذي يفرض نفسه : من الذي يخلق هذا النزوع في زيدٍ دون عمرو ؟ ولِمَ لا يكون كل البشر مؤهلين لمثل هذا النزوع فيكونون عباقرة لتماثل التكوين الحيوي والعضوي فيهم جميعاً ؟

بل إن ذلك اختيار من ذاتٍ تهيمن على هذا الكون، وتتصرف فيه حسب إرادتها ، سمت نفسها باسماء ووصفت نفسها بأوصاف ، فمن أعظم اسمائها اسم (الله)، فهو الذي يهيئ مثل هذه النفوس، ويجعل فيها الإباء لما يضر البشر والاندفاع إلى الامتثال لما فيه مصلحة البشر ، وقمة هذه النفوس هم الرسل والأنبياء .

فالمبعوثون يُعَدون إعداداً خاصا لأداء مثل هذه المهمات الخُلُقِيَّة، ابتداءً باختيار السلالة (بُعثت من خير قرن بني آدم قرناً فقرناً ، حتى كنت من القرن الذي بُعثتُ فيه) ([50]) وانتهاءً بأخذ الهداية كاملة من الله عزوجل ، قال تعالى عن آخر رسله تجاه هذا الإعداد (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى {6 /وَوَجَدَكَ ضَالًّافَهَدَى {7/وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى {8 /فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {9/وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)[51].

فالأمر برمته انتقاءٌ من ذاتٍ خارج النفس الإنسانية ، وإعداد منها لمثل هذه الأخلاق السامية .

وعند النظر في النقطة الثانية من أن صاحب الأخلاق المفتوحة يرفض نداء المجتمع ، ويستجيب لنداء الإنسانية فأمر مشهود في تاريخ الأنبياء لا يحتاج إلى بحثٍ أو تنقيب ، فما من نبي إلا وتجده يرفض الشرك بكل أنواعه ، رغم أن المجتمع يدعو إليه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا 48)[52].

كما يرفضون كل سلوكٍ عملي لا يقود إلى الإصلاح ، فها هو محمدٌ بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفض الشهادة في العطاء من أبٍ لابنه ، لعدم مساواته بين الأولاد فعن حصين بن عامر قال: (سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة، لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله ، قال أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال لا ،قال فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، قال فرجع فرد عطيته) [53].

فشرع الله الأخير هو الوحيد الذي يستطيع أن يحقق مصالح الناس أجمعين ، واستجابة نداء الإنسانية لا يتأتى إلا منه ، فاتباع أحكامه والامتناع عن منهياته كفيلان بتحقيق ما تطمح إليه النفس الإنسانية أينما

وُجدت، في القرى أو المدن أو الأرياف ، وما على البشر إلا الخضوع لأخلاقيات هذا الدين .

وعند النظر في النقطة الأخيرة من أن الأخلاق المفتوحة ينحصر عملها في غرس المحبة بين البشر، وإنها تنتقل عن طريق العظماء بالأسوة والاقتداء أمرٌ يسنده الواقع ، إلا أن السؤال يبقى قائماً من الحاكم الذي يفصل أن هذا عبقري وأخلاقياته تستحق الاتباع ؟ ولا يمكن القطع في تعيين العبقري إلا من جهةٍ خارج النفس الإنسانية، لأن اتفاق البشر في تحديده أمرٌ مستحيل ، لاحتمال الادعاء من كل عظيمٍ أنه عبقري.

ولا شك أن تلك الجهة المُحَدِدَة للعبقري والعبقرية موجودة ، وقد عينها القرآن الكريم وهو الله جل وعلا فتحديده سبحانه يرفع النزاع في تعيين العبقري والأخلاقيات العبقرية .

أما قضية غرس المحبة بين البشر فأمر مشهود في الدين المنزل من عند الله عزوجل على محمد بن عبد الله ، وقد حققها على أرض الواقع في صورة تعجز البشرية عن تقديم مثيلٍ لذلك ، فما الإخاء بين المهاجرين والأنصار إلا جزء ضئيل من تلك المحبة بين البشر، وما أعظم ذلك : المبدأ الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لغرس الحب بين الناس أجمعين (لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَ لأخيه ما يُحِبُ لنفسه)[54] .

وأختم بحثي هذا بذكر نماذج من أخلاق محمدٍ صلى الله عليه وسلم يندر وجودها في البشر، ويقودك ذلك إلى القناعة التامة من أن اتباعه في كل شؤون الحياة هو الحل الأمثل لاكتساب الأخلاق الإنسانية .

نماذج أخلاق نبوية يندر وجودها في البشر:

أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم كلها سامية بشهادة القرآن الكريم ، إلا أن بعضها أرفع من بعض، ومنها ما يصعب الوصول اليها إلا من النفو س الكبيرة فمن ذلك :

شراء الشيء من صاحبه وإهداؤه إليه ([55]).

إنفاق كل المال الذي ملكته يمينه في عباد الله ([56]).

رد القرض بأفضل منه ([57]).

التجاوز عن أخطاء من دونه ، فقد خدم أنس بن مالك رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لم يسأله لِمَ فعلت كذا ولم تركت كذا ([58]).

عدم رد السائل عما طلبه مع حاجته إلى ذلك الشيء ([59]) .

عدم المحاباة في إنفاذ العقوبة مهما كانت صلة القرابة ([60]).

البساطة في المعيشة إلى حد الاكتفاء بأقل القليل ([61]) .

أسأل الله أن يرزق البشرية اتباعه صلى الله عليه وسلم حتى تتحقق فيهم الأخلاق الإنسانية.

الهوامش

1- انظر منبعا الأخلاق والدين ص 39 .
2- منبعا الأخلاق ، ص287وانظرللتفصيل ص 18- 19 ،و ص.100
3- منبعا الأخلاق ، ص56، وانظر ص 43 وص 75- 76 .
4- انظر منبعا الأخلاق ، ص43 - 44.
5- منبعا الأخلاق ، ص 106 ، وانظر للتفصيل ص 15.
6- انظر منبعا الأخلاق ص 103 .
7- منبعا الأخلاق ص 109 .
8- منبعا الأخلاق ص 291 ، وانظر للتفصيل ص 96 .
9- منبعا الأخلاق ، ص97 ، وانظرللتفصيل ص31 و ص.102
10- منبعا الأخلاق ، ص135 .
11- منبعا الأخلاق ، ص100 .
12- منبعا الأخلاق ص 91 .
13- انظر منبعا الأخلاق ، ص 20 ، وص105 ، وص299 .
14- رواه الإمام مالك في المؤطا ، كتاب الجامع ، باب ما جاء في الوحدة في السفر للرجال والنساء ص 694 .
15- سورة النساء آية 59 .
16- رواه البخاري ، فتح الباري كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ج13 ص121 .وفي مسند الإمام أحمد (لا طاعة لمخلوق في معصية الله عزوجل) مسند العشرة المبشرين بالجنة رقم الحديث 1041 .
17- سنن النسائي كتاب الطلاق باب من لا يقع طلاقه من الأزواج ص 480 .
18- سورة الأحزاب جزء من آية 5 .
19- سورة البقرة جزء من آية 286 .
20- انظر المعجم الوسيط ، مادة خلق ج1 ص 251 .
21- انظر المصدر السابق ج1 ص252
22- المعجم الوسيط ج1 ص 251 .
23- المستوى الأول ص 193 .
24- منبعا الأخلاق ص 96 .
25- انظر منبعا الأخلاق ص 290 وص87 وص62وص67 .
26- انظر منبعا الأخلاق ، ص63 - 64 وص 292 .
27- منبعا الأخلاق ، ص135 .
28- منبعا الأخلاق ، ص290 .
29- انظر منبعا الأخلاق ص 38 وص 65 .
30- انظر منبعا الأخلاق ، ص17، و ص28 .
31- منبعا الأخلاق ، ص16 .
32- جزء من حديث ، رواه البخاري ، فتح الباري كتاب الجهاد باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ج6 ص160 .
33- سورة المائدة آية 32 .
34- انظر منبعا الأخلاق ، ص55 .
35- منبعا الأخلاق ص 55 .
36- منبعا الأخلاق ، ص113 .
37- منبعا الأخلاق ، ص219 .
38- سورة الأعرف آية 172 .
39- مسند الإمام أحمد ج6 ص 54 ، وص91، وص 111، وص162 ، وص188 ، وص216 .
40- سورة آل عمران آية 31 .
41- سورة الزخرف آية 23 .
42- سورة غافر آية 26 .
43- سورة الأنبياء آية 51- 58 .
44- سورة النساء آية 93 .
45- سورة الشورى آية 40 .

46- انظر منبعا الأخلاق ، ص108 .
47- انظر منبعا الأخلاق ، ص40 .
48- منبعا الأخلاق ، ص40 - 41 .
49- انظر منبعا الأخلاق ، ص287 .
50- الحديث أخرجه البخاري ، كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، فتح الباري ج6 ص 566 .
51- سورة الضحى آية 6- 10 .
52- سورة النساء آية 48 .
53- الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الهبة باب الإشهاد في الهبة ، فتح الباري ج 5 ص 211 .
54- الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فتح الباري ج1 ص 56 .
55- انظر قصة شراء الجمل من جابر وإهداؤه صلى الله عليه وسلم الجمل والثمن إليه في صحيح البخاري ، فتح الباري ج4 ص 320 .
56- انظر حديث أبي ذر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري فيما لو ملك مثل جبل أحد ذهباًلأنفقه في عباد الله ، فتح الباري ج5 ص 54 .
57- انظر صحيح البخاري ،قصة رد الجمل الذي اقترضه رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بجملٍ أفضل منه فتح الباري ج 5 ص 5 .
58 - انظر صحيح البخاري ، فتح الباري كتاب الاستئذان باب آية الحجاب ج 11 ص22 ، ومسند الإمام أحمد ، مسند أنس بن مالك رقم الحديث 11803 .
59- انظر حديث البردة المنسوجة - في صحيح البخاري - التي اهدته إحدى الصحابيات له صلى الله عليه وسلم فلبسها النبي محتاجاً إليها فطلبها صحابي فأعطاه اياها ، فتح الباري ج3 ص 143 .
60- انظر حديث المخزومية في صحيح البخاري وفيه قوله صلى الله عليه وسلم (... وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطع محمدٌ يدها) فتح الباري ج 12 ص 87 .
61- انظر حديث عمر رضي الله عنه في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثر الفراش في جنبه ، مسند الإمام أحمد ج 3 ص 46 .